رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعرّي

شرح وإيجاز

كامل كيلاني

الجزء الاول

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم

إهداء الكتاب

مَوْلَاى :

مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ — أَوْ قَرِيبٍ — تَغَنَّى صَاحِبُ الْغُفْرَانِ فِى مَنْثُورِهِ وَمَنْظُومِهِ بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَرَاحَ يَنْشُدُهُ — حَيَاتَهُ — عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ .

وَالْيَوْمَ يَتَحَقَّقُ لِشَارِحِ الْغُفْرَانِ فِى عَهْدِكَ الزَّاهِرِ — ذَلِكَ الْحُلْمُ الذَّهَبِىُّ الْجَمِيلُ الَّذِى عَزَّ عَلَى مُؤَلِّفِ الْغُفْرَانِ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ .

مَوْلَاى :

وَلَقَدْ رَفَعْتُ بِالْأَمْسِ إِلَى سُدَّةِ أَمِيرِنَا الْمَحْبُوبِ — فِى أَوَّلِ نَشَاءَتِهِ الطَّاهِرَةِ — أَوَّلَ لَبِنَةٍ سَوَّيْتُهَا فِى أَسَاسِ مَكْتَبَةِ الْأَطْفَالِ .

وَالْيَوْمَ يُسْعِدُنِى أَنْ أَرْفَعَ إِلَى سُدَّةِ مَلِيكِنَا الْمُصْلِحِ — وَهُوَ فِى مُقْتَبَلِ شَبِيبَتِهِ النَّاضِرَةِ — آخِرَ لَبِنَةٍ أَضَعُهَا فِى صَرْحِ مَكْتَبَةِ الشَّبَابِ .

وَأَنَا فِى هَذِهِ وَتِلْكَ لَا أَتَوَخَّى — بَعْدَ رِضَا اللهِ (سُبْحَانَهُ) — غَيْرَ رِضَاكَ ، رَاجِياً أَنْ تَظْفَرَ هَذِهِ — مِنْ رِعَايَةِ الْمَلِيكِ — بِمِثْلِ مَا ظَفِرَتْ بِهِ تِلْكَ مِنْ عِنَايَةِ الْأَمِيرِ .

وَحَسْبِى أَنْ أُرَدِّدَ فِى هَذَا الْمَقَامِ مَا أَسْلَفْتُهُ فِى ذَاكَ مِنْ مَوْفُورِ الْوَلَاءِ ، صَادِقِ الدُّعَاءِ :

« فَإِذَا قَبِلْتَ هَدِيَّتِى ، وَرَضِيتَ عَنْ هَذَا الْكِتَابْ
أَحْيَيْتَ فِى نَفْسِى الرَّجَا ءَ فَأَبْدَعَتْ فِى كُلِّ بَابْ
وَمَلَأْتَ قَلْبِى بِالْيَقِي نِ فَلَا أُبَالِى بِالصِّعَابْ »

كامل كيلاني

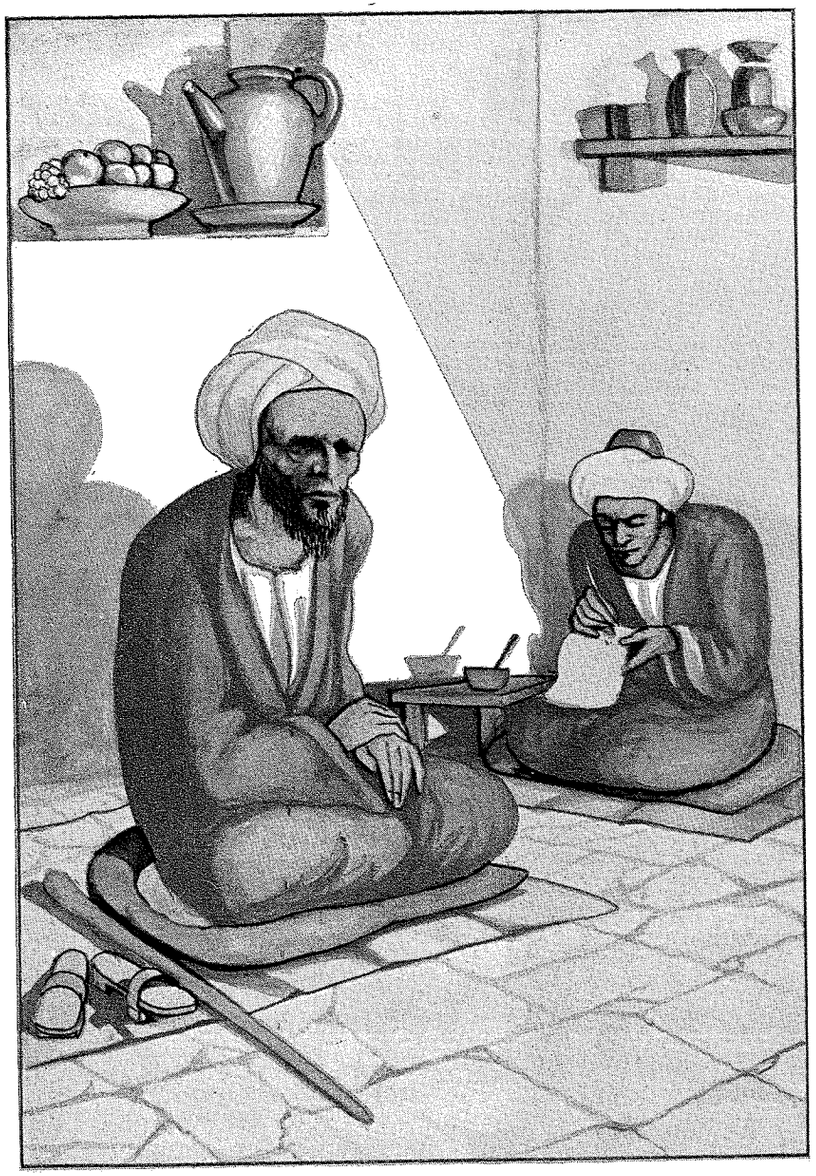

أبو العلاء كما تخيله شارح الرسالة

مقدمة

« أكتبُ هذا ، و بين يدىَّ طبعة لرسالة الغفران ، أذاعها « كامل كيلانى » — منذُ حين — أكتبه ، وأنا أعلمُ أن هذه الطبعة قد ذاعتْ ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجوًّا ، فاغتبط للطبعةِ نفسها ، وعناية « كامل » بها ، ثم أغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد ، وهذه العناية ، ثم أغتبط لأن روح أبى العلاء ، وفلسفته ، ومناهجه — فى الفهم والتفكير — قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربى، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين ».

تلك هى نبوءة الأستاذ العميد[1] منذ خمس عشرة سنة ، وقد صدَّق الزمن نبوءته التى أوحاها إليه رواج الطبعة الأولى من هذا السِّفر النفيس ، فقد نفدت الطبعة الثانية كما نفدت الطبعة الأولى فى زمن يسير ، ومضت نسخهما تطوِّف فى الآفاق ، فأصبحت كل نسخة منها مدداً فى مكتبة لأديب أو متأدب ، وحقق الشباب المفكر تأميلنا فيه ، ورأى فى هذا السفر الخالد مصداق ما حدثناه به : فنا من الأدب العالى يفخر به الفكر الإنسانى ، و يزهى بروعته الخيال العالى[2] ، فأقبل على هذه اللذائذ الفكرية المرتقيات — كما يقول شيخ

---

(١) انظر مقدمة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية التى صدرنا بها الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وقد أعدنا نشرها فى هذه الطبعة الثالثة (ص ٦٦٩ — ٦٧٨) ومما كتبه الاستاذ العميد عن الطبعة الثانية من الغفران فى مقدمة كتاب « صور جديدة من الادب العربى » قوله : وقد راجت رسالة الغفران هذه — فى مصر والشرق العربى ، بل رأيت من المستشرقين — فى أوربا — من يرضى عنها ، ويعجب بها . »

(٢) صدرنا الطبعتين الاولى والثانية بما يلى :

الى الشباب المفكر ، الذى أدرك حقيقة الادب الحى ، وعرف قيمته وأثره فى احياء النفوس ، وانهاض الشعوب .

الى الشباب المفكر الذى اطلع على الآداب الغربية ، فسحرته أنغامها العديدة ، وهاله خضمها الزاخر ، الجياش بشتى احساسات الحياة وخوالجها ومثلها الرائعة ، وعطف على الآداب العربية فأحرج صدره ما فيها من الخلط وسوء الاختيار ، فعزف عنها مزدرياً ناقما — وله بعض العذر — واندفع متهافتا على الادب الغربى الذى وجد فيه لكل خالجة وترا ، تشجيه أنغامه ، وتملأ فراغ نفسه ، وتحلق بها فى أسمى ملكوت تطمح اليه .

الى هذه الفئة من الشباب ، أقدم هذا الكتاب الذى أرى فيه فناً من الادب العالى ، أجرؤ فأزعم — لا متحمساً للغتنا ، ولا متعصبا لآدابنا ، ولا مجازفا فى زعمى — أنه لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس عربى مفكر ، وهنا نمسك القول حذرا من الاسراف والشطط . . . »

المعرة — ونفدت الطبعة الثانية منذ عشر سنوات — أو تزيد — ثم شغلتنى مكتبة الأطفال عن إظهار هذه الطبعة إثر نفاد سابقتها حتى أتاح الله هذه الفرصة ، وقدّر لها الظهور فى هذا الثوب الأنيق .

ولا يَدْهَشَنَّ القارئ إذا حدثته بأن إقبال الشباب العربى على هذه الرسالة ، قد أحيا فى نفسى ميت الآمال ، وحفزنى ذلك النجاح إلى إنشاء مكتبة الأطفال . فقد تحقق لى أن الطفل العربى إذا تعهدناه فى أول نشاءته بالتثقيف العربىّ ، ويسّرنا له سبل البيان العربى ، حسن رأيه فى أدبنا ، وصفا تفكيره ، واستقامت فطرته ، وقد أثبتت الأيام صدق ما رأيناه ، ثم بدت فى هذه الأيام بشائر طيبة ، فرأينا طائفة من كرام المربين يقتفون أثرنا فى هذه الطريق وينتهجون ما رسمناه من خطط ومناهج، فحمدنا لهم تلك المحاولات المشكورة، ودعونا لهم بالسداد والتوفيق ، وما زال أملنا معقوداً بنجاحهم القريب ، متى ضاعفوا من عزماتهم وأخلصوا نياتهم ، وتصدى كل منهم لما يحسنه ، واقتصر الميدان على أهله .

ولئن كانت رسالة الغفران حافزة لنا إلى إظهار مكتبة الأطفال ، لقد كانت تلك المكتبة معوّقة لنا عن المبادرة بإظهار هذه الرسالة إثر نفادها .

ولقد آثرت الروية ، واخترت التريث ، ولم أدفع بالكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن احتفلت له وحشدت — لتجويده — كل ما أملك ، حتى قربته — ما وسعنى الجهد — من الكمال الفنى المنشود ، رغبة فى أن أجزى بالشكر لأبناء العروبة على ما بذلوه من تقدير وتشجيع . وإن إقبال شبابنا على الآثار العلائية المبْدَعة ، وتزودهم من هذا المنهل الفكرى الصافى ، لدليلا أى دليل ، على أصالة النهضة الأدبية التى يرفع أعلامها أعلام هذا العصر ومفكروه ، وإن فى نفاد الطبقات المتعاقبة من آثار المعرى لفألاً صادقاً — كما قلت فى مقدمة الطبعة الثالثة من « اللزوميات » — يبشر بخير النتائج ، وينبئ بأحمد الغايات .

* * *

ولقد جلونا هذه الطبعة الجديدة وقد أنست بالنص الكامل لرسالة ابن القارح ، وهى الرسالة التى بعث بها صاحبها إلى أبى العلاء ، فأجابه عليها برسالة الغفران[1] .

(١) انظر (الجزء الأول ص ٢١ و ٢٢) لترى السبب الذى دعا ابن القارح الى تأليف هذه الرسالة التى حفزت المعرى الى انشاء رسالة الغفران .

وقد أضفنا إليها طائفة صالحة من رسائل المعرى ، فى فقه اللغة ، وفنون الأدب . وضروب شائقة من طريف الحكمة وجميل المودة ، ثم ذيلنا ذلك بترجمه وسيطة لجحيم « دانتى » إذ كان الباحثون قد أفاضوا — لهذا العهد — فى صلتها بغفران « أبى العلاء » .

وقد أخذنا أنفسنا — فى إخراج هذه المجموعة من الرسائل المبدَعة — بأن نقيد نصوصها بالشكل الكامل ، وإن بيان « أبى العلاء » لجدير أن يضبط كله ، إذ كان ذلك الكاتب المتفرد مغربًا فى لفظه وأسلوبه ، على عمق أغراضه ومعانيه .

وما أحوج القارئ — لآثار هذا الفيلسوف الأديب — إلى أن يضاعف يقظته لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصى مرماه الخفى ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسر ، ويحشد قواه الفكرية كلها فلا يتوزعها الصواب فى إعراب كلمة أو تصريفها أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل المقادة ، ميسور التأتى ، هيّن الدرك ، للأديب المتمكن ، ولكنه — على ذلك — شَدَّما يكون حجر عثرة فى طريق الشُّداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الأدبية الجديرة بالجد والمعاناة . واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحًا دقيقًا ، ينكشف به المقصود من معانيها فى عرض الكلام .

ويسيرٌ غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير أبى العلاء من كتاب الغريب المنصوص عليه صراحة فى المعجمات ، فان امتلاك أبى العلاء لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظة من جزل النظم والنثر ، وتمرسه بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهدّيه لأبكار المعانى وعيون الكلام ، وتوفقه فى ابتداع الصورة الفنية الرائعة . وحشده أفانين مختلفة من مُعْجب التصاوير وبارع الصيغ ، وتبحره فى التاريخ ، إلى حد أن قال — وصدق — :

« ما مرّ فى هـذه الدنيـا بنو زمن إلا وعندى — من أخبارهم — طرف »

كل أولئك قد أجرى لسانه بالكثير الأكثر من صور ألفاظ تدل — بعـد الروية ، ومد البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، مما توسعت به اللغة ، وتشعّب التصريف ، فصار واجبًا أن نحد المراد من اللفظ فى سياق الجملة حدا دقيقًا ، وأن نفسره